تحيَّة إلى غـــسَّـــان كـــنـــفـــانــــي

ما تبقّى لكم ... ما تبقّى لنا

* محمد عبيد الله

- ما الذي تبقّى من غسّان كنفاني بعد أكثر من ثلاثين عاماً من الغياب الدامي ؟

- (ماذا تبقّى لكم)، ماذا تبقَّى لنا من غسَّان كنفاني، ومن رجاله وبنادقه، من أرض البرتقال الحزين، ماذا تبقَّى من العاشق، بعد أن سار على [جسر إلى الأبد] ؟

- ها نحنُ لم نزل في [عالم ليس لنا]، وليس بيننا غسَّان كنفاني، ها نحن نسأل فقط، ونتذكَّر ...

هل غاب غسَّان كنفاني، طوال ثلاثين حزناً، ونكبة ؟ هل غاب مدججا بالرصاص، مُمزّقاً مثل تراب فلسطين . ما الذي قالته اليد الحانية على القلم والبندقيَّة عندما تطايرت فوق الصفيح جريحة، تكتب بالدم اسم فلسطين ... وتستعيدُ صور أيدٍ كثيرة تساقطت منّا في رحلة العذاب الطويل ؟

طوال أيامٍ وليالٍ خَلَتْ حاولت أن أعيشَ حالـــة غسَّان ... حاولت أن أجدّد صلةً ما انقطعت به وبأدبه وآثاره وحياته ... [أنتبه أني أتحدَث فيما يشبه النجوى ... والكلام العاطفي ... أنتبه أنني لا أكتب نقداً ولا بحثاً ... أنتبه أنني أقول الآن : اللعنة على النقد الأدبي ... اللعنة على الجامعات التي حاولت أن تعلّمنا تحويل النصوص الحيَّة إلى مشرحة الجثث باسم النقد الأدبي ...] .

وأقرّر أن أمضي مع غسّان ... مدججا بالذاكرة، وبحس الطفولة والمأساة ... كي أتحرَّر كثيراً مـــن حسّ الباحث، وبـــرودة مشاعره وهـــو يعبر إلى النصوص، محوّطاً بالنظريات وكلام النقَّاد ...

ماذا تبقَّى فينا من غسّان كنفاني ؟ ماذا تعلَّمنا منه ؟ مـــا الذي تركه لحايليه، وللأجيال العمياء من أمثالنا ... نحن الذين ولدنا بعيداً عن كل معنى ... بعيداً عن كلّ أفق مقدّس ... ؟؟

غسَّان كنفاني ... علّمني أكثر من أي شيء : ... أنَّ لفلسطين معنى ... وأنَّ للكتابة معنى ... وأنَّها يمكن أن تدفعك إلى ما تريد، وكان هذا في طفولة معذّبة في مخيَّم الكرامة (غور الأردن) هل أقول إني حاولت أن أكون قاصاً مثل غسان كنفاني ... وكتبتُ أولى قصصي في الإعدادية عن فتى يعبر النهر مدججاً بالرغبة في الموت النبيل، الموت الذي لا يشبه الموت ... الموت الذي يفتتح الطريق إلى الحياة ... (فيما بعد عرفت أنّ ماجد أبو شرار كتب قصصاً بِهذه الرؤية، ثم مات اغتيالاً ... استشهد كما كانت تستشهد شخصياته، وشخصيات غسَّان كنفاني) .

ها أنا أيضاً في قراءتي الجديدة لغسَّان ... أتعلَّم أشياء جديدة... إذن تبقى منه كل شيء ... فكلَّما استعدناه اكتشفنا فيه ما لم نفهمه من قبل، وكلَّما اشتدَّت عتمة الاغتراب، وعتمة الكتابة اكتشفنا أنَّ بيارقه وحدها تبقى، وأنَّ " رجال في الشمس " مثلاً لم تزل تتكرر بأشكال شتّى، بوصفها مثالاً حيّاً للعذاب الفلسطيني وللتيه الجارح الذي سقط فيه .

نستطيع الآن أن نتأمَّله ... (غسَّان والعذاب معاً) فنرى المبدع والكاتب قد نقل النثر الفلسطيني إلى مناطق جديدة لم يكن قد عرفها حتَّى زمان كنفاني، إنَّه العلامة الأميز من حيث نمذجة فلسطين بإنسانها ومكانها وزمانـــها وقضيّتها ... وتَحويــلها إلـــى قضيَّة إنسانية بعيدة الأنحاء، ممتدَّة الآفاق ... ولستُ أجاملُ ... أو أبالغُ ... حين أقرؤه في داخلي ... بكل موازين النقد وموازين الأنسنة .. فأقول : إنَّه أهمُّ كاتب روائي وقصصي تناول المأساة الفلسطينية، وكان فارسها الأبرز، الذي افتتح آفاقاً جديدة للكتابة موضوعاً ورؤيا ... تشكيلاً ومعنى ... تناول أبعاد فلسطين وطوَّرها بقلمه الصادق الجريء لتتحوَّل بين يديه إلى تراجيديا مبدعة خالدة، نستطيع أن نقرأ فيها وجهاً لوجه الشخصيَّة الفلسطينية باضطرابها وقلقها، بخوفها وشجاعتها، برغبتها في الحياة وإقبالها على الموت، بذنوبها وطهرها، بدنسها وبراءَتها ... بكل ما فيها من تناقضات ميَّزتها عن غيرها من بقيّة البشر .

وعندما اختار غسَّان كنفاني (فلسطين) موضوعاً أساسياً لأدبه، ونتاج روحه، لم يكن خياره مبنياً على الانتقاء، وإنَّما كان خيار الضرورة، لم يكن أمامَه خيار سواه، فلقد كان معذَّباً بالجرح الفلسطيني، ومغمَّساً بالمعاناة التي عاشها طفلاً وفتىً وشاباً، على المستوى الشخصي، وبالمعاناة التي عاشها أبناءُ شعبه عام النكبة المزلزلة، وما تلاها من أعوام طويلة للغربة والتشرُّد والشتات، والبحث عن المستحيل، وعن الاستثنائي، من أجل الوصول إلى خاتمة للسفر الإجباري، وللتشرُّد الذي لا ينتهي .

واختار غسَّان الشكل السردي، (قصة ورواية ومسرحيَّة) مدخلاً أساسياً للتعبير عن قضيَّته، وكأنه رأى المأساة في صورتها الموضوعية، في صورة حكاية ممتلئة بالجراح التي يجب تطهيرُها، بتحويلها إلى علامات فنِّية، ونواميس إنسانية كبرى، بدل أن تذبل وتموت ... كما يموت كلُّ شيء يتَّصِل بالفلسطيني ... وقد ساعدته هذه الأشكال السرديَّة على تقديم أطراف المأساة ... وقـــد سعى خلال ذلك إلى نمذجة الإنسان، وكثيراً ما اختار شخصياته وأبطاله من الفقراء ... وأبناء المخيَّمات ... والمشرَّدين الذين يبحثون عن فلسطين وعن سبل للعيش، وفي أكثر الأحيان، كان ينجح فـــي النفاذ إلى الجوهري فـــي الروح الفلسطينية، بتجاوز الظاهر البسيط من خلال اختزاله واختراقه للنفاذ إلى

الطبقات الأعمق عبر عمليات من الرمز والإيحاء والكشف الحلمي والرسائل المتبادلة، وسائِر الأنظمة الجمالية الغنية، وكأنَّه يعي أن الأدب لا يخلد بموضوعه فقط، ولا بدّ له من شروط الفن والجمال .

وهكذا حملته رؤيته العميقة ليعمق أسئلته، ويشحن أدبـــه بلمسات جديدة، يسنده وعيه بالموضوع الذي يكتب فيه، ووعيه برسالة الكتابة، و لم يكن غسان ممن يكتبون لأجل الكتابة، ولا من جماعة (الفن للفن) فلا فن إلاّ للحياة ولفلسطين وعنها ... ولا مجال للكتابة المترفة المزوّقة في تجربة مثل تجربة غسَّان كنفاني، وهكذا كانت كتابته تحمل غايتها الفريدة ... أن تخلّد الإنسان الفلسطيني وتكشف عن أعماقه المأساوية، وأن تحمل مشعل الفداء والثورة في الأجيال الجديدة المدججة بالثورة .

هكذا مثلاً يرسم (أم سعد) العجوز الفقيرة التي تأتي من المخيّم، وترسل ابنها إلى الثورة ليتحوّل إلى فدائي تزدهي به، رغم خوفها عليه، ويكشف في أثناء ذلك عن الوعي الفطري عند هذه الشخصية (نموذجاً للأم الفلسطينية) إنَّها فقيرة، لكن لديها وعيها، وهي ليست أماً بلا قلب، لكن من سيذهب إلى الحرب إن لم يذهب سعد، إن لَم يـــذهب الأبناء الذيـــن نحبُّهم، من أين نأتي بالفدائيين والثوار ؟؟

" أعرفها منذ سنوات . تشكل في مسيرة أيامي شيئاً لا غنى عنه، حين تدق باب البيت، وتضع أشياءها الفقيرة في المدخل تفوح فـــي رأسي رائِحة المخيَّمات بتعاستها وصمودها العريق، ببؤسها وآمالها، ترتـــد إلى لساني غصَّة المرارة التي علكتها حتَّى الدوار سنة وراء سنة .

آخر ثلاثاء جاءت كعادتها، وضعت أشياءها الفقيرة، واستدارت نحوي :

- يا ابن عمِّي، أريد أن أقول لك شيئاً . لقد ذهب سعد .

- إلى أين ؟

- إليهم .

- من ؟

- إلى الفدائيين . " ص (768)

هكذا ببساطة آســرة، وعمق آسر، يرسم أبعــاد الشخصيَّة الفلسطينية (الأم)، وعندما يسألها الراوي (أولست حزينة أو غاضبة؟) تداور في الجواب كي لا تنفي الحزن، ومحبَّة الابن، لكنَّها تشير إلى ما هو أبعد من ذلك :

- " لا . قلت لجارتي هذا الصباح : أودّ لو عندي مثله عشرة، أنا متعبة يا ابن عمِّي، اهترأ عمري في ذلك المخيّم . كل مساء أقول يا ربّ ! وها قد مرَّت عشرون سنة، وإن لم يذهب سعد، فمن سيذهب . " ص (769) .

وتكشف أم سعد عن رغبتها في الالتحاق به، لتضع قانون التفرقة بين الخيام، الخيام ليست متشابهة، فالخيمة / البيت البائس في المخيم، ليست هي ذاتها، خيمة الفدائي :

- " أتدري ؟ إن الأطفال ذل ! لو لم يكن لديّ هذان الطفلان للحقت به، لسكنت معه هناك . خيام ؟ خيمة عن خيمة تفرق ! لعشت معهم، لطبخت لهم طعامهم، خدمتهم بعيني، ولكن الأطفال ذل ." ص (773) .

هذا المشهد ... مشهد أم سعد، أليس فيه أبعاد مُمتدة للأم الفلسطينية، ولتكوّن شخصيّة الفدائي ... وجُملة الأحوال التي أجبرت الإنسان الفلسطيني، ودفعته إلى آفاق جديدة وحيوات مُختلفة ... الأم تحب ابنها ولا تريد لــه الموت ... لكن الموت سوف يأتيه، ويأتيهم جميعاً، إذن فليذهب إلى الحرب من أجل الحياة .

في قصة عنوانها " قرار موجز " ص (841)، يكشف لنا غسّان أطرافاً من علاقة الفلسطيني بالموت، ويسعى برؤيته العميقة إلى بلورة مفهوم مختلف للموت، فيأتي بعبد الجبار (اسم الشخصية) ويبني منه شخصية إنسان " من هواة الفلسفة ... والحياة بالنسبة لــه هي مجرَّد نظريَّة ... إلاّ أن مستوى فلسفته ارتفع مع مسير الزمن، وتوصَّل مؤخَّراً إلى قرار موجز :

" طالما أنَّ الإنسان دفع ليعيش دون أن يؤخذ رأيه بذلك، فلماذا لا يختار هو وحده نهايته ".

هكذا يتعمَّق معنى الموت لكن النظرية وحدها لا تكفي، ولا بدّ لها من اختبار، بمواجهة الموت، والبحث عن أشكال مناسبة للنهايات، وهو موت مسنود بوعي فكري وعمق في الرؤية، إنّه ليس موتاً سطحياً ساذجاً، لكنّه موت عميق ... ويزداد وضوحه بممارسة البطل للنضال ودخوله إلى الميدان، إنَّه يحمل لقب (الفيلسوف) وعندما قُبض عليه، كان الاختبار للفيلسوف الثائر (عبد الجبار) الذي قال أو فكَّر ذات مرَّة :

" ليس المهم أن يموت الإنسان، أن يحقق فكرته النبيلة، بل المهم أن يجد لنفسه فكرة نبيلة قبل أن يموت " .

وحين قُبِضَ عليه، لم يضعف، بل تعمَّق في معنى تعذيب السجين، وفهم لماذا يواجهونه بالعذاب [إن ضرب السجين هو تعبير مغرور عن الخوف] وحين طلبوا منه أن يدلَّهم على رفاقه، سخر منهم، استناداً إلى وعيه ورؤيته الممتدة، (إنَّ الخيانة في حدّ ذاتها ميتة حقيرة)، وهكذا لم يحاول أن يحافظ على حياته، ويضحي بالرفاق الثائرين، وإنَّما خدع الأعداء، وتسبب لهم في الموت، أمَّا هو فقال جملته الأخيرة لرفاقه (ليس الموت أن يموت أحدنا ... المهم أن تستمروا)، فقد يموت بعض الناس، من أجل حياة البقية، الموت الفردي حياة إن مهّدت الطريق ... والحياة هي حياة الفكرة النبيلة، وحياة الثورة المتّقدة .

لقد اعتمد غسَّان على توازن فريد بين الفعل والكلمة ... وكان مع الكلمة / الفعل، الكلمة المحترقة التي تضيء للآخرين الطريق . وفي " ثلاث أوراق فلسطينية " (ص319) مثلاً، نقرأ كلام إحدى شخصياته، ومنطقها عن نوع من الكلام :

" كلام الجرائِد لا ينفع يا بني، فهم – أولئك الذين يكتبون في الجرائِد – يجلسون في مقاعد مريحة وفي غرف واسعة فيها صور وفيها مدفأة ثـم يكتبون عن فلسطين، وعن حرب فلسطين، وهم لم يسمعوا طلقة واحدة في حياتهم كلها، ولو سمعوا إذن لهربوا إلى حيث لا أدري " .

هذا النمط من الكتّاب هو نقيض غسان كنفاني، أما هو فاختار أن يكون مدججاً بالطلقات، مدججاً بالموت وروح الفداء، ولذلك كانت كلماته صادقة مؤثرة خالدة، فالكتابة مهمة، لكنها ينبغي ألا تكون من موقع المشاهدة والمراقبة الباردة، وإنّما من موقع الفعل الثوري نفسه،المتوحُّد مع البندقيَّة.

لقد استطاع غسان كنفاني عبـــر هذا الدمج بين الكلمة والفعل أن يبني تراجيديا مطولة للعذاب وللشتات الفلسطيني، فقدّم صورة الفداء والتضحية والثورة، وقدم أحوال اللاجئين في المخيمات، وقدَّم صوراً لشتات الأسرة الفلسطينية، ولكل ما عاشه هذا الإنسان الذي تمزّق بمجرّد خروجه من وطنه .

ولو تابعنا هذا المشهد من قصَّة (أبعد من الحدود) لوجدنا أطرافاً حادَّة من هذه المأساة :

" لِي أم ماتت تحت أنقاض بيت بناه لها أبي في صفد، أبي يقيم في قطر آخر وليس بوسعي الالتحاق به ولا رؤيته ولا زيارته، لي أخ يا سيدي، يتعلَّم الذل في مدارس الوكالة، لــي أخت تزوّجت في قطر ثالث، وليس بوسعها أن تراني أو ترى والدي، لــي أخ آخر يـــا سيدي في مكان لم يتيسَّر لي أن أهتدي إليه بعد، تريد أن تعرف جريمتي؟ هل يهمّك حقاً أن تعرف أم أنت فضولي يا سيدي؟ لقد سكبت يا سيدي دون أن أعي كل محتويات وعـــاء الحليب فوق رأس الموظف وقلت له: إنني لا أريد أن أبيع وطني، في لحظة جنون أم عقل ؟ لقد وضعوني في زنزانة سحيقة العمق، لكي أقول إنّها لحظة جنون، ولكني في تلك الزنزانة، تيقَّنت أكثر من أية لحظة مضت بأنها كانت لحظة العقل الوحيدة في حياتي كلها " . (ص 280) .

كان غسَّان إذن واضحاً في رؤيته ورسالته وغايته، وهذا الوضوح منح نتاجه ميسماً خاصاً يجمع بين العمق والوضوح، وهذا ما جعل من كلماته وأعماله حالات متَّصلة من الاستشهاد، والبحث عن أفق المعنى ... ما معنى فلسطين ؟ وما ملامح أبنائها ؟

لقد انتصر غسَّان لفلسطين ولإنسانها، ولكنه لم يكن في موقف التمجيد والمديح، وإنَّما تعمَّق في قراءة شخصياته، وفي أدبه نستطيع أن نرى الإنسان الفلسطيني لا كمتطهر أو بريء دائماً وأبداً، وإنَّما بوصفه شخصيَّة تجمع قدراً واسعاً من النقائِض : من الطهر إلى الدنس، ومن الصدق إلى الكذب،

ومن قمَّة الكبرياء إلى حدود التخاذل، لأنه ابن التاريخ المتأرجح المدجج بالخذلان، ولعلّ غسَّان، أول كاتب فلسطيني يحاول ملامسة هذه النفسية المتضاربة، وضبط انفعالاتها ليجعل منها أرضية لأدبه ونتاجه الروائي والقصصي .

لقد عاش غسّان حياة ناقصة، ومات موتاً مؤقّتاً عبر كتابته الاستشهادية، ومقتله المدجج بالغيظ، فترك ملاحم لم يتمّها، وأخرى تحتاج إلى قراءات متجددة .

في السادسة والثلاثين غاب، لكنّه خلّف كل تلك الأسئلة، أراه يقهقه ويسخر من الحانقين والشامتين، يلوّح بمسودّات كثيرة، وبيارق بيضاء، فيها أسراره ورسائِله التي لم يتمّها، وفيها أحلام فلسطين وحنّون ترابها .

لقد تبقّى من غسّان كل شيء .

روايات وقصص لا ينسخها الزمن، لأنَّها ليست عَرَضية، ولا طارئة، وحياة مفعمة بالمعاني الكبرى لفلسطيني أراد أن يكون إنساناً لا يمحوه الغبار، فرسَّخ وعيه وحضوره عبر كتابة نوعيَّة تستلهم الهمّ الفلسطيني، ولا تسقط في سذاجة البكاء، كتابة تكثِّف كل الحنين، لكنَّها لا تنهار ولا ترتبك، بل تمضي لتفجير كل إمكانات التراجيديا عبر التقاط النقائِض والجمع بينها في هيئة تشكيلات إنسانية عميقة .

تبقى لنا منه كل شيء، لكنّا كما لو كنا عمياناً، لم نستطع أن نأخذ منه أي شيء، حتَّى دالية أم سعد التي تركتها لتبرعم فينا لم نَرَ براعمها، ولم نبسم لها ولو مرة فكفَّت عن الابتسام ومالت إلى الجفاف الجارح في الزمن الجارح ... سألَنا ... لِمَ لَمْ نَطْرُق الخزّان ...؟

فما أجبنا ...
أو أننا طرقنا وطرقنا
لكن لم يجب أحد ...

* أرقام الصفحات في داخل المقالة محالة إلى طبعة الأعمال القصصية لغسان كنفاني (الآثار الكاملة، المجلّد الثاني، مؤسسة الأبحاث العربية، ط3، 1987).

* شاعر وأكاديمي،أستاذ الأدب العربي
المساعد بجامعة فيلادلفيا الأردنية
mobaidallah@hotmail.com